صفحة من العاطفـــة

بكاء العرب للشباب

بقلم الأستاذ عبد اللطيف المغربى
المدرس بمعهد التربية للبنات

الشباب من الحياة : بسمتها الواضحة . وخفقتها اللائحة ، وربيعها الموشى . وأملها المرجى . وكوكبها اللامع . ونورها الساطع . وزهرتها الناضره . وحليتها الساحره . ورمزها الصادق . وقلبها الخافق . وتحيتها للوجود . ونغمتها العذبة فى أذن كل موجود . ورداؤها الضافى . ومعينها الصافى . وعبقتها العطرة . وغايتها المدخرة . ووثبتها الفتيه . وأنشودتها الشجيه . به تُجَمّ الأحلام . وتحلو الآلام . وتهون الصعاب . وتحفل الرغاب . وتمرح النفس وتطرب . وينشط الجسم ويخصب . وإن شئت فقل هو الحياة . أو ليست الحياة شيئا سواه !

عرف العرب ذلك منذ عصورهم الأولى فرحوا فى ظلال الشباب . ونعموا بأيامه . وتضوه حلما رائعا حافلا بمالهم من أحلام وآمال . وسعدوا به عصراً متدفقا بما عندهم من حقيقة وخيال . حتى إذا انحسرت بشاشته . وتقلصت ظلاله . وأفلت نجومه . ودرست أعلامه . أشرفوا بعده على مطلع هائل . يملأ النفس حسرة ويذكى فى القلب ضرام الأسى واللوعة . مطلع وراءه قرب المصير . وطى صفحة الحياة . مطلع تنشب فيه الحرب قوية عاتية بين الرجاء واليأس . والقوة والضعف . والعزيمة والخور . والحياة والفناء — حتى يأذن ربك بأن تضع الحرب أوزارها فى نهاية الحياة وأول مراتب الفناء — ذلك المطلع الرائع « هو المشيب »

عرف ذلك كله العرب فتأثرت به نفوسهم . وخفقت له قلوبهم . واضطرب له وجدانهم وشعورهم . فراحو يبكون الشباب بأصدق ما يبكى به عزيز .

ويودعونه بأجمل مايودع به راحل . وتراكضوا فى ميدان ذكرياته . يتهالكون أسفا ووجداً عليه . وتشوقاً وحنينا إليه . وجادوا بأقوال خالدة فى بكائه لاتحسبها إلا ذوب العاطفة . أو مهج القلب . أو نسيج الشعور . أو ذماء النفوس . وإنا سمعت باكيهم على الشباب أو متفجعهم سرت فى نفسك هزة تخامر منك شغاف القلب ، وتجرى فى مسالك الروح . فلا تتقيها إلا بدمعة مسفوحة . أو أنة مرسلة . وأشرفت معه على الماضى المحبب ملتاع النفس . مضطرب الفؤاد . جم الأسى — ولا بدع فى ذلك فأنت أحد رجلين : رجل لقى المشيب كما لقيه الباكى فشركه فى مصابه ، فكأنه يصوغ خلجات قلبه ، وينظم فيض عاطفته . ويبكى بعينه . وينطق بلسانه . ورجل تخب به الأيام . فهو يتوقع مصير صاحبه . فالنفس منه قلقة . والقلب واجف .

ولقد غنى الأدب العربى من بكاء الشباب بأقوال كثيرة ممتعة يصعب جمعها ، ولعل هذه الناحية العاطفية أحفل نواحى العاطفة بالقول . وفى هذا الرأى نستأنس بقول الأصمعى « ما بكت العرب شيئا كما بكت الشباب » ونسوق إلى القارئ الكريم بعض صور تمثل هذه العاطفة ونبدأ بها هينة هادئة متزنة ثم نصعد بها فى القوة والعنف .

(١) قال عدى بن زيد :

بان الشباب فما له مردود ... وعلى من سمة الكبير شهود
شيب برأسى واضح أعقبته ... من بعد آخر بات وهو حميد
ولقد بكيت على الشباب لو انه ... كان البكاء به علىّ يعود
ليس الشباب وإن جزعت براجع ... أبداً وليس له عليك معيد

ترى الشاعر فى قوله فزع على الشباب ولم يطل فى الفزع حتى ذكر أنه لامرد له . ثم عرض للشيب فأبان أنه أضحى بديلا من الشباب المحمود . وذكر أن البكاء غير مجد وأن الجزع لايفيد ولا يعيد الشباب على فاقده معيد . وذلك نوع من التأسى واليأس المريح .

(٢) ويقول الأحوص :

بان الشباب فما له تحويل ومضى الشباب فما إليه سبيل
ولقد أراني والشباب يقودني ورداؤه حسن على جميل
وعلى من ورق الشباب وظله غصن تفرع فى الغصون ظليل
بشر يكون من الحرير ولمة مثل الجناح وعارض مصقول
فاليوم ودعنى الشباب كأنني سيف تقادم عهده مفلول

وهذه قطعة عذبة رائعة تموج بذكريات الشباب المرحة . وتفتر عن ألفاظ رائعة تتسلسل فيها عاطفة هادئة مؤثرة . وتنتهى ببيت رائع التشبيه محكمه صادقه .

(٣) وترقى العاطفة قليلا فى قول كعب بن زهير :

بان الشباب وأمسى الشيب قد أزفا ولا أرى لشباب ذاهب خلفا
عاد السواد بياضا فى مفارقه لا مرحبا بذا الشيب الذى أزفا
فى كل يوم أرى فيه مبينة تكاد تسقط نفسى عندها أسفا
ليت الشباب حليف لا يزايلنا بل ليته ارتد منه بعض ماسلفا

وقد وصف الشاعر ذهاب الشباب واقبال الشيب وهو لا يرى خلفا من الشباب فلهذا لا يرحب بالشيب الذى خلفه والذى يرى كل يوم منه ظاهرة تكاد نفسه تسقط لرؤيتها أسفا وجزعا . وتمنى أن لو كان الشباب حاينا ، له وكأن رأى أن هذا مطلب عسر فتمنى أن يعود بعض الشباب إليه ، وهذه العاطفة تشعرك برحمة قوية لهذا الشاعر المحزون .

(٤) ثم يأتى خشرم بن زيد البلوى فيقول :

ذهب الشباب وليته لم يذهب ونعى الشباب مخبر لم يكذب
فاندب عشيات الشباب ولا أرى مثل الشباب مفارقا لم يندب
إن الشباب أخ متى لا تلقه تنزل بساحتك الهموم وتنصب
بينا الشباب تسرنا أيامه ونشوب لذته بعيش معجب
نزل المشيب وقال حانت عقبتى وأخال أنى سائق بك فاركب

وقد قويت عاطفة الشاعر فى هذه القطعة ففزع على الشباب وذكر أن مخبرا صادقا قد نعاه فلا شك فى فراقه . فدعا إلى ندبه . وذكر أن الناس غفلت عن ندب

الشباب وأنه لم ير مفارقا مظلوما لم ينل حظه من الندبة مثل الشباب . وصوره أخا إذا فارق الانسان حلت بساحته الهموم والآلام . وبينا الانسان معجب بالشباب ممتع به إذ حل المشيب وقال : هذه عاقبتي فاركب فأني سائق بك الى وادى الفناء . وهذه المعانى تشع منها عاطفة جزع وحزن عميقة — ولا نريد أن نسترسل فى ميدان بكاء الشباب ، فذلك مالا سبيل اليه فى كلمة موجزة . ولهذا نسمعك صوتا للعاطفة المتقدة فى بكاء الشباب ، فأرهف لها سمعك واشدد على قلبك .

(٥) قال تميم بن مقبل العامرى :

ياحر أصبحت شيخا قد وهى بصرى	والتاث ما دون يوم الوقت من عمرى
يا حر من يعتذر من أن يلم به	ريب الزمان فانى غير معتذر
يا حر أمسى سواد الليل خالطه	شيب القذال اختلاط الصفو بالكدر
يا حر أمست تليات الصبا انقطعت	فلست منها على عين ولا أثر
قد كنت أهدى ولا أهدى فعلنى	حسن المقادة أنى فاتنى بصرى
كان الشباب لحاجات وكن له	فقد فزعت إلى حاجاتى الأخر
راميت شيبى كلانا قائما حججا	ستين ثم انتضينا أقرب القتر
أرمى النجوم فأشويها وتثلمنى	ثلم الاناء فأغدو غير منتصر
قالت سليمى بجنب القاع من مرخ	لاخير فى العيش بعد الشيب والكبر

فانظر إلى مافى هذه القطعة الخالدة التى تعج عجيجا بالألم والحسرة وتضطرب فيها العاطفة بألوان من الأسى والذكريات الجميلة وكأنها صادرة من وحى نفسك معبرة عن أصدق تفجعك على الشباب . وانظر الى الشاعر حيث انتهى فيها الى قول سليمى : « لا خير فى العيش بعد الشيب والكبر » تحس الكثير مما انطوت عليه نفس الشاعر من ألم وتفجع .

عبد اللطيف المغربى